بتاريخ 28 جمادى الاول 1445
الاوامر

الجلسة 38

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمْ
الْحَمْدُ للّه رَبِّ الْعَالَمِينْ وَصَلَى الله عَلَىٰ سَيِّدَنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينْ

دوامُ السير مع خطبة أمير المؤمنين(ع)
لحدِّ الآن قد طرحنا مرحلةَ المعرفة الإلهيّة ثمّ تصديقِ الله ثمّ توحيده ثمّ الإخلاص له، و الآن سنَعرُجُ إلى المرحلة الخامسة، و قد شرحها الأسفار قائلاً:

قوله عليه السلام: و كمالُ الإخلاص له نفيُ الصفات عنه، أراد به نفيَ الصفات التي وجودُها غيرُ وجود الذات (إذ الصفةُ تغايرُ الموصوف) و إلا فذاته (البسيط) بذاته مصداقٌ لجميع النعوت الكمالية و الأوصاف الإلهية من دون قيام أمر زائد بذاته تعالى (بخلاف الإنسان الذي تَزيد صفاتُه على ذاته فربما يقدِر و ربما يعجَز فهي ليست من ذاتِ الإنسان)، فرضِ أنه صفة كمالية له، فعلمه و قدرته و إرادته و حياته و سمعه و بصره كلها موجودة بوجود ذاته الأحدية مع أن مفهوماتها متغايرة و معانيها متخالفة فإن كمال الحقيقة الوجودية في جامعيتها للمعاني الكثيرة الكمالية مع وحدة الوجود.

إذن، فيتلخّصُ الإخلاصُ في الزهد القلبيّ الاعتقاديّ ـ لا العمليّ ـ إخلاصاً عن كافّة الصّفات المَشينة و النواقص و... وفقاً لتفسير ابنِ ميثم، و قد أشار السيد الخوئيّ أيضاً إلى كيفيّة انعدام الصفات السلبيّة عن الذات الإلهيّ.[1]

فرغم أن عبارةَ "نفيَ الصفاتِ عنه" ظاهرٌ في نفي كافّةِ الصفات عن الباري، إلا أن الإماميّةَ وفقاً لسائر الأدلة الأخرى، قد أطبَقَت على أن الصفاتِ الذاتيّة تعدّ عينَ الذات فلا تَتفكّكُ عنه، فنَستَنتِجُ أن مَنويَ الإمام هي حذفُ الصفات العارضية الزائدة أو السلبيّةِ عنه الباري.

بل نترقّى فنقول: إنّ حملَ الصفات الذاتيّة على ذات الله كالعلم أو القدرةِ يُعدّ مسامحيّاً لدى أذهان البشر إذ قوّة التخيّل لدى الإنسان متوقّف على تصوير صورةٍ مّا، لكي يُصدّقَها، بينما قد شرحنا مسبقاً عينيّةَ الصفات الذاتيّة مع الذات الإلهيّ بلا اثنَينِيّة في البين فالله هو العلم و القدرة و الحياة بتمامِها، إذن أمثال هذه التعابير تعدّ مسامحيّةً من باب ضيق الخناق.

إنهاءُ الحوار من كتاب الأسفار
قوله عليه السلام: لشهادة كلّ صفة أنها غير الموصوف و شهادة كل موصوف أنه غير الصفة، إشارة إلى برهان نفي الصفات العارضة سواء فرضت قديمة كما يقوله الأشاعرة (بأن صفاتِه زائدةٌ على ذاته و لكنها قديمة) أو حادثةً، فإن الصفة إذا كانت عارضة كانت مغايرة للموصوف بها و كلٌ متغايران في الوجود، فكلٌ منهما متميز عن صاحبه بشيء و مشارك له بشيء آخر و ذلك لاشتراكهما في الوجود (فنفي الصفات التي ذكرها الإمام هي الصفات الزائدة العارضيّة لأنها تُغاير الوجودَ لا الصفاتُ الذاتيّة التي هي عينُ وجوده تماماً) و محالٌ أن يكون جهةُ الامتياز عينَ جهة الاشتراك و إلا لكان الواحد بما هو واحد كثيرا بل الوحدة بما هي وحدة بعينها كثرة هذا محال ـ فإذن لا بد أن يكون كل منهما مركبا من جزء به الاشتراك و جزء به الامتياز فيلزم التركيب في ذات الواجب و قد ثبت أنه بسيط الحقيقة هذا خلف و إليه الإشارة بقوله.[2]

و باختصار، من المبرَم أن ننفيَ الصفات المُتواجِدَةِ في المخلوقين لأنها حادثةٌ و كذا الصفات السلبية لأن الله كمالٌ محض ـ حتى لو كانت قديمةً ـ إذ بسيطُ الحقيقة من جميعِ الجهات يُعدّ عديمَ التركيب حتى تركيباً وصفيّاً و موصوفيّاً، أجل، إنّ المُمكناتِ الماديةَ تتمتّع بأجزاءٍ ماديّة و الممكناتِ العقليةَ كالمَلَک تتمتّع بأجزاءٍ عقليّة، بينما الباري تعالى هو منعدمُ التركّب و الجزئيّة لأنهما يَتَطلّبانِ الفقرَ و الحاجةَ بينما الباري تعالى بريئٌ عن الأجزاء المادية و العقلية إطلاقاً، فكلُّ هذه البيانات وفقاً للأسفار الذي استَحكمَت مقالتُه بخطبة الإمام عليه السلام.

فمَن وصفه فقد قَرَنه إلى قوله فقد جهله، أي من وصفه بصفة زائدة فقد قرنه بغيره في الوجود و إذا قرنه بغيره فقد جعل له ثانيا في الوجود و كلما فرضه ثاني اثنين فقد جعله مركبا ذا جزءين بأحدهما يشاركه في الوجود و بالآخر يباينه ـ فكلامه ع إذ هو منبع علوم المكاشفة و مصدر أنوار المعرفة نص على غاية تنزيهه تعالى عن شوب الإمكان و التركيب فيلزم من هذا التنزيه و التقديس أن لا موجود بالحقيقة سواه و هذه الممكنات من لوامع نوره و عكوس أضوائه و قد مرت الإشارة إلى أن غاية التوحيد توجب أن يكون الواحد الحقيقي كل الأشياء فهو الكل في وحدته و لهذا عقب هذا الكلام الذي في نفي الصفات.[3]

بقوله عليه السلام و من أشار إليه فقد حده إلى آخره، أي من أشار إليه بأي إشارة كانت حسية أو عقلية بأن قال هاهنا أو هناك أو كذا و كذلك فقد جعله محدودا بحد خاص و من حده بحد معين فقد عده أي جعله واحدا بالعدد لا بالحقيقة و قد ثبت أن وحدته الحقة ليست مبدأ الأعداد و واحد الأفراد و الآحاد و هو محال.

و على هذا يجب أن لا يكون محصورا في شيء و لا يخلو عنه شيء فلا يكون في أرض و لا في سماء و لا يخلو عنه أرض و لا سماء كما ورد في الحديث لو دليتم بحبل على الأرض السفلى لهبط على الله و لهذا قال عليه السلام: و من قال فيم فقد ضمنه و من قال على م فقد أخلى منه، تصديقا لقوله تعالى هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ و قوله مٰا يَكُونُ مِنْ نَجْوىٰ ثَلاٰثَةٍ إِلاّٰ هُوَ رٰابِعُهُمْ وَ لاٰ خَمْسَةٍ إِلاّٰ هُوَ سٰادِسُهُمْ و قوله تعالى وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ اَلْوَرِيدِ و قوله في الحديث القدسي: كنت سمعه و بصره و يده و قول النبي ص: إنه فوق كل شيء و تحت كل شيء قد ملأ كل شيء عظمته فلم تخل منه أرض و لا سماء و لا بر و لا بحر و لا هواء و قد روي أنه قال موسى: أ قريب أنت فأناجيك أم بعيد أنت فأناديك فإني أحس حسن صوتك و لا أراك فأين أنت فقال الله أنا خلفك و أمامك و عن يمينك و شمالك أنا جليس عند من يذكرني و أنا معه إذ دعاني و أمثال هذا في الآيات و الأحاديث كثيرة لا تحصى.[4]

لَمعةٌ أساسيّةٌ حول الأسفار

إنّ التجوّلُ و الانغمار في مقولة الأسفار لا يَعني تبريرَ كافّة مقالاتِ الفلاسفة بل إن الأسفار كشتّى الكتب الأخرى قد واجَهَ اعتراضاتٍ بل هجَماتٍ عديدةٍ، و ذلک لأن عبائرَ الحُكماءِ ربما تُوهم باعتقاداتٍ مُزيَّفَة، فمعنى اتحادِ الموجودات مع الله تعالى لا يستتبعُ اندماجه تعالى مع النواقص و الشوائب أيضاً، بل مقصودُهم أن الوجودَ الحقيقيّ المُتكامِل الإلهيّ قد أُفِيضَ على شتّى الموجودات فتَواجَدَت بنحو وجودٍ غير حقيقيّ إذ الوجود الحقيقيّ هو بسيط الوجودِ الصرف، و أما النواقص و المعايب العارضة على الموجودات فقد نشأت من هذه النشأةِ الدنيويّةِ الحادثة إذ كلّ ممكن حادث و ناقصٌ بَتّاً، و لهذا قد قال تعالى: ليس كمثله شيئ، فكل المُماثِلات تُغاير المُتمثَّلَ به في أصل الوجود القديم الكامل التامّ، رغم أن أصل الوجود نابعٌ عن الله تعالى، إذن، من المُستحيل أن يُماثِل شيئٌ وجودَ الله تعالى إذ لا شريک له أساساً، و من هنا قد اتّضح لک أن السنخيّةَ المطروحةَ ضمن الفلسفة هي على سنخ هذه الآيةِ و على نسق خطبة أمير المؤمنين عليه السلام إذ إنّا نسيرُ إثرَ مسار الكتاب و العترة فحسب فلا ندعَم علمَ الفلسفة بأسرِه إلا المطالبَ المشحونةَ من جانب الشرع، و أما علم الفلسفة يُعدّ ذَريعةً للتّعقّل في أمثال هذه المتنون الاعتقادية العميقة و لا يُدرک الإنسان مغازاها إلا بالبراهين العقليّة السليمة، فمن تلک المتون: يا مَن دلّ على ذاته بذاته. و كذا الآية: شهد الله أنه لا إله إلا هو... ، إذن، فذاته هو الذي قد نفى الصفاتِ الزائدةَ عن ذاته، فوَعيُ هذه البيانات الطريفة تفتقر إلى الاستدلالات العقلية فإن الإمام عليه السلام قد صرّح قائلاً:

يا هشام: ما بعث اللّه أنبياءه و رسله الى عباده الا ليعقلوا عن اللّه فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة، و أعلمهم بأمر اللّه أحسنهم

عقلا، و أكملهم عقلا أرفعهم درجة في الدنيا و الآخرة. يا هشام: ان للّه على الناس حجتين: حجة ظاهرة و حجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل و الأنبياء و الائمة عليهم السلام، و أما الباطنة فالعقول.[5]

---

[1] منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة.[1]

[2] الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، قم ـ ايران، مكتبة المصطفوي، جلد: ۶، صفحه: ۱۴۰

[3] الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، قم ـ ايران، مكتبة المصطفوي، جلد: ۶، صفحه: ۱۴۱

[4] الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، قم ـ ايران، مكتبة المصطفوي، جلد: ۶، صفحه: ۱۴۱

[5] التعليقة على كتاب الكافي، قم ـ ايران، مطبعة الخيام، صفحه: ۳۴